الباب التاسع

دروس التصوف

زينة وجمال الشريعة المحمدية:

كانَ سيِّدُ الأوّلِينَ والآخِرينَ، محمَّدٌ المُصْطَفَى أحْمَدُ المُجْتَبَى ﷺ خَاتَمَ النبيّين لا نبيَّ بَعْدَه. والأمّة المحمّديةُ ـ على نبيّها الصَّلاة والسَّلام ـ آخِرُ أمَّةٍ، ودِينُ الإسْلَامِ آخِرُ دِينٍ في الدُّنْيا. أنْزِلَتْ أحْكَامُ الشَّريعةِ المحمّديَّةِ ـ على صَاحِبِها الصَّلاة والسَّلام ـ لِيُعْمَلَ بِها إلى يَوْمِ القِيامةِ، فَذَكَرَ أهميَّةَ بَعْضِ الأحْكَام وعيَّن وسَائِلَها.

وبَعْضُ الأحْكَامِ ذَكَرَ أهميّتَها ولَمْ يحدّدْ وسَائِلَها وذَرائِعَها. والحِكْمَةُ في تَرْكِ تَحْدِيدِ الذّرائعِ والوسَائلِ أنْ يَبْقَى هذا الدّينُ حيًّا يُمْكِنُ العَمَل به إلى يوم القيامةِ، وأنْ لا يقالَ: إنَّ هذا الدِّينَ جَامِدٌ غَيْرُ صَالحٍ لمُقْتَضَيَاتِ الأوْضَاعِ المتبدّلة، وأنْ لا يُقَيدَ في حُدُودِ المَسَاجِدِ والمَعَابِدِ كالمسيحيَّةِ الغَيْرِ المُمْكِنِ العملُ بها، فتعيينُ المَقَاصِدِ والتَّوسيعُ في تَخْيير الوسَائِلِ يدلّ على جَمَالِ الشَّريعةِ المحمديَّةِ.

ذِكْرُ بَعْضِ الأمْثِلةِ:

المِثالُ الأول: قال اللّه تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

أمَرَ في هذه الآيةِ بإعْدَادِ ما يُسْتَطَاعُ مِنْ قوّةٍ وأُشِير بذِكْرِ رِبَاطِ الخَيْلِ أنَّ المُرادَ به آلات الجِهَادِ، ولم يُعيّن تَفْصِيلاتٍ أُخَرَ، بلْ قد صَرَّح

بالمَقْصُودِ بأن تَجْمَعُوا مِنَ القوّةِ ما يرهبُ بها عدوّ اللّه وعدوّكم ـ يؤيدُ العَقْلَ السَّليم أنَّ العَدُوَّ لا يُرهَبُ اليوم باقتناء الخَيْل وبجَمْع السّيوفِ والسّنان والرّماحِ، بلْ لا بدّ من إعْدادِ الطّائرات والبَواخِرِ والصّواريخِ والقَنَابلِ الذريةِ، فَثَبُتَ أنَّ الشَّرعَ عَيْنُ المَقْصُودِ ههنا، وأرْخَى العِنَان لاختيار الوسَائلِ والذرائعِ حسب متطلبات وقت الحَاجةِ.

المثال الثاني: قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

فَحِفْظُ القُرْآنِ الكَرِيم وَإِشَاعَتُهُ فَرِيضَةٌ مُحْكَمَةٌ وهَامَّةٌ، ولَكِنْ لَمْ يبيّن لنا رسولُ اللّه ﷺ أنِ اخْتَاروا طريقَ كذا وكذا حتى وقَعَتْ حَرْبُ يَمَامة في عَهْدِ الصّدّيق رضي اللّه تعالى عنه واسْتَشْهَد أربعمائة عَدَدٌ كبيرٌ مِنَ الصَّحَابةِ من حُفّاظِ القُرآن الكَرِيم، فبَدَا لعمرَ رضي اللّه عنه أن يكونَ القُرآنُ الكريمُ مَحْفُوظاً في الصحَائفِ كما هو مَحْفُوظٌ في الصّدُورِ، فقدّم أمَامَ خليفةِ رسولِ اللّه ﷺ اقتراحُ إعدادِ نسخةٍ رسميةٍ للقرآن الكريم، فتأمّلَ الصّديق رضي اللّه عنه في بِداية الأمْرِ في قَبُولِ هذا الاقْتراحِ، وقال: كَيْفَ نَفْعَلُ شيئاً لم يَفْعَلْه رسولُ اللّه ﷺ؟ فَلَمْ يزلْ عمرُ يراجِعُه حتى شَرَحَ اللّه صَدْرَ أبي بَكْرٍ لذلك، فأقَامَ لجنةً تحت إشرافِ زيدِ بنِ ثابتٍ الأنصاريّ رضي اللّه عنه، فجَمَعَ آياتِ القُرآن الكَريم التي كانَتْ مكتوبةً على الأحْجَارِ والجُلُودِ والثّيابِ وأوراقِ الأشْجَارِ.

قال ابن كَثيرٍ: قال زَيدٌ: قال أبو بَكْرٍ: إنَّكَ رَجُلٌ شَابٌّ عَاقِلٌ، لا نتّهمُكَ وقد كُنْتَ تكتبُ الوحيَ لرسولِ اللّه ﷺ فتتبّع القرآنَ فاجْمَعْه إلى أنْ قال... فتتبعتُ القرآنَ أجْمَعُه من العسبِ واللّخافِ وصُدورِ الرّجَالِ.

[فضائل القرآن مع تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٩٣١]

فتمّ أمرُ جَمْعِ القُرآنِ الكَريم في عَهْدِ أبي بَكْرٍ الصّديق رضي اللّه

عنه، وتقدّم عثمانُ رضي اللّه عنه خطوةً فأعدَّ أربَعَ صُوَرٍ لذلك المصْحَفِ وأرْسَلَها إلى بلَادٍ مختلفةٍ. يوجَدُ منها مخطوطةٌ في تاشقند، وأخْرَى في مَتْحَفِ إستانْبُول إلى اليوم، وأيضاً لم يكن يرسم في المصحف الضمة والفتحة والكسرة والتشديد وأمثالها في عهد الصحابة، وكانتْ لا تُكْتَبُ الإعجَامُ على الياء والتاء وهي اليوم لازمة. فعلم أنه عُيِّنَ هدف حِفْظِ القُرآنِ ونَشْرِهِ وأبيح رعايةُ متطلبات العَصْرِ لاختيارِ الوسَائلِ والذرائعِ، وفوّض هذا الأمرُ إلى رأي العُلماءِ مِنْ هذه الأمّةِ.

المثال الثالث: قال النبيُّ ﷺ: «طَلَبُ العِلْمِ فريضةٌ على كلّ مُسْلِمٍ».

[شرح السُنة ج ١ ص ٢٩٠]

ذُكِرَ في الحَديثِ الشَّريفِ ضَرُورةُ تَحْصِيلِ العِلْم الدِينيّ، ولكنْ كَيْفَ يَحْصُلُ ولمْ يُذكَرْ لها تَفْصِيلاتٌ. دوّن العُلَماء المحدثون فنّ أسماء الرّجال وجَمَعُوا مُتونَ الأحاديثِ بأسانيدِها. ما كَانَ للصَّحابةِ عِلْمٌ بأَسماءِ الصّحَاحِ السّتة لأنه لم يكنْ لها وجُودٌ في ذلك الوقْتِ ولا يمكنُ اليومَ تعلّمُ الأحاديثِ بدونِها. رتّبَ العُلَماءُ اليوم مَنْهَجاً خاصًا (وهو المُسَمَّى في دِيارِنا بالدّرس النّظَاميّ) لتحصيلِ العلم مُراعاةً للأوضَاعِ اليوميَّةِ، فَلَا بدَّ لكلّ مَنْ يريدُ تعلّم القرآنِ والحديثِ مِنْ أخْذِ فُنُونِ الصَّرفِ والنَّحْوِ، فتبيَّن أنّه قَدْ أخبرَ بأهميَّةِ تَحْصِيلِ العِلْمِ، ولَكِنْ وُضِعَ عبءُ اختيارِ الوسائلِ والذّرائع على أكْتَافِ عُلَماءِ الأمّةِ، والحَمْد للّه، إنَّ علماءَ هذه الأمةِ أدّوا هذه الفَريضَةَ حقّ أدائها.

جئت إلى المقصود:

تبيَّن مِنْ هذه الأمْثِلةِ كالنّهارِ المُضيءِ أنَّ الشَّريعةَ المطهّرةَ بيَّنت أهميَّة بعْضِ الأحْكَامِ بدون تعيين أسْبابِها ووسَائِلها، وهو دليلُ كَمَالِ

الشَّريعةِ المُصْطفويةِ. وننظُرُ الآنَ إلى طريقةِ الذِّكْرِ والسّلوكِ من هذا الجانب. قال رسولُ اللّه ﷺ: «إنَّ في الجَسَدِ مُضْغةً إذا صَلَحَتْ صَلحَ الجَسَدُ كلّه، وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كلّه ألَا وَهِي القَلْبُ».

[صحيح مسلم ج ٣ ص ١٢٢٠ طبع بيروت]

فعُلِمَ أن مَبْنى صَلَاحِ الإنْسانِ على صَلَاح قَلْبِهِ، ولهذا لا ينظُرُ اللّه إلى صُورةِ الإنْسانِ وشَكْلِهِ، ولا إلى مَالِهِ وثَرْوَتِهِ، بَلْ إلى قَلْبِهِ وأعْمَالِهِ. قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ اللّه لا يَنْظُرُ إلى صُوَرِكُمْ وأمْوالِكُمْ ولَكِنْ يَنْظُرُ إلى قُلُوبِكُمْ وأعْمَالِكُمْ».

[شرح السُنة ج ١٤ ص ٣٤١]

ويَنْشَأُ ههنا سُؤالٌ أنّه كيْفَ يُمْكِنُ تحصيلُ صَفَاءِ القَلْبِ وسَلَامتِهِ؟ فبيَّن طَرِيقَه النبيُّ ﷺ. عن ابنِ عُمَرَ رضي اللّه عنهما عَنِ النبيِّ ﷺ: «إنَّ لكلِّ شيءٍ صَقَالةً وإنَّ صَقَالةَ القُلوبِ ذِكْرُ اللّه».

[رواه البيهقي؛ الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٣٩٦]

فتبيَّن مِنْ هذه الأحاديثِ أنه يَجِبُ على كل شَخْصٍ تَحْصِيلُ قَلْبٍ سليم، فكأنه حدَّد المقصودَ وأرْشَدَ إلى الوسَائلِ وبأنّها تَحْصلُ بذِكْرِ اللّه فقط. ولم يَذْكُرْ لها تَفْصيلاتٍ. إنَّ أي ذِكْرٍ ينفَعُ للخَلَاصِ مِنَ الأمْراضِ القلبيَّةِ مِنَ الكِبْرِ والحِرْصِ والبُخلِ والعَجَبِ والحَسَدِ فذكر بالإجمال أنَّ ذِكرَ اللّه شِفَاءُ القُلُوبِ ووُضِعَ عِبْء التَّفصيلاتِ على كَواهِلِ أهْلِ الذِّكرِ مِنَ الأُمةِ حتى يَعْلَمُوا الذّكر مراعين لطبائع الطَّالِبين ومُقْتضياتِ كيفياتِهم، فالمشايخُ العظامُ يَصِفُون لواحدٍ صِفةَ ذِكْرِ اللّه تعالى نظراً لقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥] ويُلَقّنُونَ لآخرَ بإكْثَارِ كَلِمَةِ التَّوحيدِ نظراً لقوله ﷺ: «أفْضَلُ الذِّكْرِ لا إله إلَّا اللّه» ويعلّمُونَ شَخْصاً الذكْر القلبيّ، أعْني المراقبةَ لقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ﴾ ويَصِفُونَ لآخَرَ الذِّكْرَ اللّسانيّ لقوله تعالى: ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [الأعراف: ٢٠٥] فثَبُتَ

أن أعْمَالَ أهْلِ الذِّكْرِ وأشْغَالَهُمْ أي دروس التصوّفِ كَمَنَاهِجِ الدَّرسِ النّظاميّ ذريعةٌ ووسيلةٌ لنيْلِ المَقَاصِدِ. وفيمَا يَلِي تأييدُ ما قُلْنا بذِكْرِ بعضِ نصُوصِ السّلفِ الصالحين رحمهم اللّه تعالى.

نصوصٌ من كَلامِ السّلفِ الصالحين:

قال الشَّيْخُ مَوْلَانا رشيد أحمد الجنجوهي رحمه اللّه تعالى في مَكْتُوبٍ له إلى سَالِكٍ: المَقْصُودُ من جَميعِ الأشْغَالِ والمَطْلُوبُ من جَميعِ المُراقَبَاتِ ومُنْتَهَاها، هو حُضُورُ القَلْبِ بلا كيْفٍ الذي يسّره اللّه سبحانه وتعالى لك. كانَتْ نِسْبَةُ الصَّحَابةِ رضي اللّه عنهم هي هذه الحُضُور.

[مكاتيب رشيدية ص ٤٥]

وقال الشَّيْخُ الشّاه إسماعيلُ الشّهيد رحِمَه اللّه تعالى في كِتَابهِ إيضَاحُ الحقّ الصّريح: أشْغَالُ الصُّوفيَّةِ نافِعَةٌ كالدّواءِ والعِلَاجِ فيستفيدُ بها وقتَ الحَاجَةِ ثم يشتغلُ في أعْمَالهِ.

[إيضاح الحق الصريح ص ٧٨]

قال الإمامُ الربانيُّ مجدّد الألف الثاني رَحِمه اللّه تعالى في مَكْتُوباتهِ: ليْسَ الهَدَفُ من قَطْعِ مَنَازِلِ الطّريقةِ والحقيقةِ سِوَى نيْلِ الإخْلَاصِ، وبالإخْلَاصِ يحصُلُ مَقَامُ الرّضَا. يظنّ القَاصِرُونَ الأحْوال والمَواجِيد مَقْصُوداً والمُشَاهداتِ والتجليّاتِ مَطْلوباً، وهؤلاء مَحْرومُونَ مِنْ كَمَالاتِ الشّريعةِ. لا شكّ أنّ حُصُولَ مَقَامِ الإخْلاصِ والوصُولَ إلى مَقَامِ الرّضَا يكونُ بعد قَطْعِ هذه الأحْوالِ والمَوَاجيدِ، فمرتبتُها كمُسَاعدِ المقْصُودِ الحقيقيّ.

[المكتوبات ج ١ مكتوب ثالث وسادس]

فتبيّنَتْ هذهِ الحَقِيقةُ أنّ أعْمَالَ وأشْغَالَ المَشَايخِ وسيلةٌ وذريعةٌ لنيلِ صَفَاءِ القَلْبِ، ولذلكَ يعدلُها المَشَايخُ نَظَراً لمقْتَضَيَاتِ الوقْتِ والزّمَنِ.

وقال الشَّاهُ إسماعيلُ الشَّهيدُ رحِمَه اللَّه تعالى: تَخْتَلِفُ أشغالُ كل قَرْنٍ ووقْتٍ، ولهذا لا يزَالُ محقّقو كلّ طريقٍ يحاولون لتجديدِ الأشْغالِ.

[صراط مستقيم ص ٧]

فلا يستطيعُ أحدٌ أن يدَّعيَ أنَّه لا يمكنُ نيلُ صَفَاء القَلْبِ بدونِ هذه الأورَادِ. وقالَ الشَّاهُ وليُّ اللَّه المحدّث الدَهْلوي رَحِمَه اللَّه تعالى: يغْلِبُ على ظنّي أنَّ الصَّحَابةَ رضي اللَّه عنهم كَانُوا ينَالُونَ النّسبةَ بطرقٍ أخْرَى أيضاً، كالمُواظَبةِ على الصَّلاةِ والتَّسبيحَاتِ بشُرُوطِها والمُدَاومَةِ على الطَّهَارةِ وذِكْرِ المَوتِ واستحضَارِ الثَّوابِ والعَذَابِ، إذْ يحصُلُ بهذهِ الأمورِ الانْقِطَاع عنِ اللذَّات الماديَّةِ.

[القول الجميل]

أقولُ: وإنْ حَصَلَ لأحدٍ صَفَاء القَلْب وكَيْفيةُ: «كأنَّكَ تَرَاهُ» بطريقٍ آخَرَ سِوَى الأعْمَالِ والأشْغَالِ المَعْروفةِ، فقد حَصَلَ المَقْصُودُ. هؤلاء مستَحقّونَ للتّبريكِ والتّهنئةِ وإن لم تُوجَدْ هذه الكيفيَّةُ القلبيَّةُ والاستحْضَارُ، ويصرفُه الوسَاوسُ الدنيويةُ إليها في الصَّلاةِ، ولا تَنْتَهِي بالطَّرْدِ، وترتفعُ الأبْصارُ تِلْقَائياً إلى غيرِ المُحْرمِ وهو يَمْشِي في الطَّريقِ وتَهْجُمُ على القَلْبِ الوسَاوسُ الشيطانيةُ الشهوانيَّةُ، وينشَأُ في النَّفْسِ السّرورُ بمدْحِ النَّاسِ ويدلي ببيانٍ كَذِبٍ لإخْفَاءِ مَعَاصِيه وسَتْر ذُنُوبهِ مِنَ النَّاسِ؛ فهذه كلّهَا آهاتٌ بيّناتٌ للأمْراضِ الباطِنَةِ المُهْلِكَةِ، فيجبُ عليْهِ عِلَاجُ هذه الأمْراضِ القلبيّةِ تحتَ رعايةِ المَشَايخِ العِظَام، ولا مَفَرَّ منه وينْبَغي أن يَعْلمَ أنَّ القَلْبَ السَّليمَ هو سَبَبُ النَّجَاةِ يَوْمَ الحَشْرِ. قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

اعلمْ أنَّ المَقْصُودَ من دُرُوسِ التّصوّفِ نَيْل القَلْبِ السَّليم والقَلْبِ المُنيبِ، حتى تكونَ حالَةُ السَّالكِ الظَّاهريَّةُ والباطنيَّةُ وسِيرَته وأخْلَاقه، أي اسْتخدامُ الأعْضاءِ والجَوَارحِ مُطَابِقاً تماماً بـ: (تخلَّقوا بأخْلَاقِ اللَّه).

قال الإمام الغزالي في كِتابِهِ المُنْقِذُ من الضَّلالِ: (عَلِمْتُ يَقِيناً أنَّ الصّوفيَّةَ هُمُ السَّالِكُونَ لطريقِ اللّه تعالى خاصَّةً، وأنَّ سِيرتَهُمْ أحْسَنُ السِّيرِ، وطَريقَهُم أصْوبُ الطُّرُقِ، وأخلاقَهُمْ أزْكَى الأخْلاقِ، بلْ لو جُمِعَ عَقْلُ العُقَلاءِ وحِكْمَةُ الحُكَماءِ وعِلْمُ الواقِفينَ على أسْرارِ الشَّرعِ من العُلَماءِ ليغيّروا شَيْئاً مِنْ سِيَرِهِمْ وأخْلاقِهِمْ، ويبدّلُوهُ بما هو خَيْرٌ مِنه، لم يَجِدُوا إليه سَبِيلاً، فإنّ جَمِيعَ حركَاتِهِمْ وسَكَنَاتِهِمْ في ظَاهِرِهِمْ وباطِنِهِمْ مقتبسةٌ مِنْ نُورِ مِشْكَاةِ النُّبوّة وليس وراء نورِ النبوَّةِ على وجْهِ الأرْضِ نُورٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ.

[المنقذ من الضلال ص ٤٩ ـ ٥٠]

دَلائلُ الأحْزابِ والوظَائِفِ:

رتَّبَ مشايخُ الطَّريقةِ الأورَادَ والوظَائِفَ في ضَوْءِ القُرْآنِ والحَدِيثِ هيَ لِلْمُبْتَدِئ كدَواءٍ، وللمُنْتَهِي كَغِذاءٍ، لو دَاوَمَ الإنْسانُ عليها عدَّةَ أيّام تحت رِعَايةِ شَيْخٍ كَامِلٍ يجدُ في حَيَاتِهِ انْقِلَاباً إسْلَامِيًّا وثَوْرةً إيمَانِيَّةً وقُرآنيةً. وتدخُلُ المحبَّةُ الإلٰهيَّةُ في عُضْوٍ عُضْوٍ، ويتغيّرُ رؤيةُ عَيْنٍ ونُطْقُ لسانٍ ومَشْي قَدَمٍ، ويشْعُرُ السَّالكُ كأنّما كان عَلَيْه غِلافُ نِفَاقٍ وقد زال، وبَرَزَ من الدَّاخِلِ إنْسانٌ صَادِقٌ وخَالِصٌ. كمَا أنَّ النُّبوَّةَ كانَتْ كامِنَةً في النبيِّ ﷺ، قال عليه الصلاة والسلام: «كُنْتُ نبيًّا وآدمُ بيْنَ الرُّوحِ والجَسَدِ».

[الجامع الصغير ج ٢ ص ٢٩٦]

ورَوَى البيهقيُّ: إني عبدُ اللّه وخاتَمُ النبيّينَ وأبي مُنْجَدِلٌ في طِينَتِهِ.

[دلائل النبوة ج ١ ص ٣٨٩]

ولَكِنِ احْتِيجَ لإظْهارِهِ في العَالَمِ الظَّاهرِ إلى الخُلْوةِ والذِّكْرِ. (وحَيَاةُ

غَارِ حِرَاء دَلِيلٌ واضِحٌ على ذلك). كذلك الولايةُ تكونُ كَامِنةً في الوليّ ولٰكِنْ تَحْتاجُ للظُّهورِ إلى التَّقْوَى والطَّهَارةِ والمُواظَبةِ على الأوْرَادِ. وقد كَشَفَ عن هذا السِّرّ الإمامُ الربَّانيُّ مُجَدّد الألفِ الثاني بقوله: (كلُّ إنْسانٍ وليٌّ بالقُوَّةِ والحَاجَةِ إلى الأعْمَالِ ليكونَ وليًّا بالفِعْلِ، فكأنَّ كلَّ إنْسَانٍ وُضِعَ فيه اسْتِعْدادٌ لو اسْتَخْدَمَه لأصْبَحَ وليًّا).

أنْشَدَ الشَّاهُ بيك خَلِيفةَ الشَّاهِ أبي المَعَالي أبْياتاً ومَعْنَاهَا: (ليْسَ أحدٌ جَائِعاً سَاغِباً بلْ في حقيبةِ كلِّ إنسانٍ جَوَاهِرُ ولآل ولا يعرفون فتح عقده، فيمشونَ مُفْلِسينَ فُقَرَاء). كالبِذْرِ يكونُ فيه استعدادٌ أنْ يكونَ شَجَراً وإن تيسّر لذلك البِذْرِ التّربي تَحْتَ رِعَايةِ بُسْتَانيّ في أرْضٍ خَصْبةٍ يصيرُ شَجَرةً مثمرةً، كذلكَ السَّالِكُ لو اشْتَغَلَ بالأخْلَاقِ الحَسَنَةِ لأورادٍ تَحْت ظلِّ شيخٍ كاملٍ أياماً، تَتَفَتَّحُ زُهُورُ الأخْلَاقِ الحَسَنَةِ في شَخْصِيَّتِهِ وتَصِيرُ شَجَرةً رَجَائِهِ مثمرةً. وهذه الوصْفَةُ جرّبها ملايينُ الناسِ في الدّنيا واسْتَفَادوا بها. كَمَا أنَّ صَيْدليًا يقول: إنْ تأكُلُوا السّكر تَجِدُوه حُلْواً، كذلك الشَّيْخُ الكَامِلُ عندما يلقّنُ بالأوْرَادِ يكونُ على ثِقَةٍ مِنْ أنّه يستفِيدُ السَّالِكُ يَقِيناً، ويكونُ تَحْتَ قَدَمِهِ صَخْرٌ. نَعَمْ لو وَقَعَ شَخْصٌ في يدِ شيخٍ نَاقِصٍ، أو يَكُونُ الشَّيْخُ كَامِلاً، ولٰكِنْ لا يُوَاظِبُ السَّالكُ على الأوْرَادِ، فهو خَارِجٌ عن المَبْحَثِ، وهو مِثْلُ مَريضٍ يأخُذُ الوصْفَةَ من طبيبٍ ذائعِ الصّيتِ، ويمْشِي والوصْفَة في جَيْبِهِ ولا يتناوَلُها ويقولُ بعد أيامٍ للطّبيبِ: لم أفِقْ، فيسألُ الطّبيبُ هَلْ تناولتَ الدَّواءَ؟ فيجيبُ المريضُ: نَعَمْ وضَعْتُها في جَيْبِي. فيقولُ الطّبيبُ: يا شَقِيُّ! لو وضَعْتَه في بَطْنِكَ لكَانَ مُفِيداً.

ومِنْ جَمَالِ هذه الأوراد أنّها سَهْلةٌ في العَمَلِ ويَحْصُلُ بها التّزكيةُ والإحْسانُ، ثم تيسّر العملُ بالشّرع كلّه، وهذا القولُ ثَابِتٌ كَثُبُوتِ أنّ مَجْمُوعَ (الاثنينِ والاثنينِ أرْبعةٌ). فمَنْ لم يوقِنْ فليجربْ يعرفُ حقيقةَ الحَالِ.

وإليكَ تَفْصِيلُ هذه الأوْرَادِ والأعْمَالِ.

١ ـ الذِّكرُ: ويُسَمَّى (الوقُوفَ القَلْبيَّ) ذِكْرُ اللّه دواءُ القُلُوب وشِفَاءٌ مِنَ الأمْراضِ البَاطِنَةِ. قال الإمَامُ ابن تيميَّةَ رَحِمَهُ اللّه تعالى:

ذِكْرُ اللّه للقَلْبِ كالمَاءِ للسَّمَكِ يجدُ به السَّالكُ بِشَارةً. ﴿فَاذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢] و: «فإنْ ذَكَرَني في نَفْسِهِ، ذَكَرْتُه في نَفْسي»، وسَعَادةً «أنا جَلِيسُ مَنْ ذَكَرَني». عدّ الحَافِظ ابن القيّم رحمه اللّه تعالى في (الوابِلِ الصيّبِ) للذِّكْر مائةَ فائدةٍ.

الذِّكْر نَوْعانِ: لِسَاني وقَلْبِي. قال شَاعِرٌ:

لِسَاني وقَلْبي يَفْرحانِ بذكْرها وما المَرْء إلَّا قَلْبُه ولِسَانُه

ثَبَتَ بالأحَاديثِ النَبويَّةِ أنّ الذِّكرَ القلبيَّ يَفْضُلُ على الذِّكْرِ اللسانيّ سبعينَ مرةً. وفَضْلُ الذِّكرِ القلبيّ على الذِّكْرِ اللسانيّ عقلاً بوجوه آتية:

يُمْكِنُ الذّكر القلبيّ كلّ وقتٍ، ولا يمكنُ الذّكْرُ اللسانيُّ كلَّ وقْتٍ، فالسَّالكُ عندما يأكلُ الطَّعامَ، أو يُلْقي مُحَاضرةً، أو يَجْلِسُ على المَتْجَرِ يعقدُ مع الزّبونِ لا يَسْتَطيعُ أنْ يَعْمَلَ بلِسَانِهِ في وقْتٍ واحِدٍ عَمَلَيْنِ؛ فهُو إمّا أنْ يتكلّمَ، وإمّا أنْ يَذْكُرَ اللّه تعالى، إذْ يمكنُ في وقتٍ واحدٍ عَمَل واحدٍ، بينما يمكنُ الذّكْر القلبيّ كل سَاعةٍ وآنٍ مُسْتَلقِياً وجَالِساً قائِماً وماشِياً.

يَتحرّكُ اللّسَانُ عِنْدَ الذّكْر اللّسانيّ، وتهتزّ الشّفةُ فيخافُ على الذّاكرِ الرّياء. بينما الذّكْر القلبيُّ يعلمُه إما الذّاكر وإما المَذْكُور، والذّكْر القلبيُّ لا يسمعُه المَلَائكةُ بل يَجِدونَ رِيحاً طيّبة، وتتبيّن الحَقِيقةُ يومَ القِيَامةِ أنّ ذلك الطّيبَ طِيبُ ذِكْرِ اللّه تعالى.

شِعْرٌ:

يكونُ بَيْنَ العَاشِقِ والمَعْشُوقِ سرّ كِرامٌ كَاتِبُونَ لَيْسَ لَهُمْ به خَبَرُ

ولهذا يسمّى الذكرُ القلبيّ ذكراً خفيًّا.

إنَّ مَحلَّ الذّكرِ في الجِسْمِ الإنْسَانيّ هو القَلْبُ، وأما اللِّسَانُ فهو آلة الإظهارِ فَقَطْ لم تَقُلْ أمٌّ لولدِها قطْ: (يا بنيَّ إنَّ لِسَانِي يذكُرُكَ كثيراً)، بلْ تقولُ دائماً: (إنَّ قَلْبِي يذكُرك كثيراً) فعلمَ أنّ مَحلّ الذّكْرِ هو القَلْبُ؛ فتبيّن بالدّلائلِ العقليّةِ أنَّ الذّكر القَلْبيَّ أفْضَلُ من الذّكرِ اللِّسَاني، قَالَ شَاعِرٌ ما مَعْناه:

كُنْ خَبِيراً بالبَاطِنِ وأجْنبيًّا عَنِ الظَّاهِرِ
هـذا أَحْسَـنُ طَـرِيـقٍ وفـي الـدّنـيـا نَـادِرُ

المَشَايخُ يسمّونَ هذا الذّكْرَ القلبيَّ بالوقُوفِ القلبيّ. أمر به غير مرة في القرآنِ والحديثِ.

أدلَّةٌ مِنَ القُرآنِ المجيدِ:

قال اللّه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١] ﴿اذْكُرُوا﴾ صِيغَةُ أمر للجَمَاعَةِ. فأُمِرَ المؤمنونَ بالذّكْر الكَثِير، وبَعْدَ ذلك وُعِدَ الذّاكِرونَ كثيراً بالمَغْفِرَة والجَنّة، قال تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وينشأُ ههنا سُؤالٌ وهو: ما مَعْنَى الذّكْرِ الكَثِيرِ؟ هل يَذْكُرونَ قليلاً بعد كلّ صَلاةٍ، أو يَذْكُرونَ صَبَاحاً ومَسَاءً أو يَذْكُرونَ حتى يَتْعَبُوا، فمَاذا يَفْعَلُونَ؟ قَالَ مُجَاهدٌ تحت هذه الآية: الذّكْرُ الكثيرُ أنْ لا يَنْسَاه بحَالٍ، ما مَعْنَى أن لا يَنْسَاهُ بحالٍ؟

الإنْسانُ له أحْوالٌ ثَلَاثةٌ: إمّا أنْ يكونَ قَائِماً أو قَاعِداً أو مُضْطَجِعاً. والمُرادُ بالذّكْرِ كلّ وقْتٍ أن يَذْكُرَ اللّه تعالى قَائِماً وقَاعِداً ومضْطَجعاً، وهذه عَلَامةُ أُولِي الألبابِ قال تعالى فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١].

ويؤيدُه ما رَوَى السّيُوطِي عنه قال: لا يُكْتَبُ الرَّجُلُ مِنَ الذَّاكِرين اللَّه كَثِيراً حتَّى يَذْكُرَ اللَّه قَائِماً وقَاعِداً ومُضْطَجِعاً.

[الدر المنثور ج ٦ ص ٦٠٩]

قال الصَّاوي تحت هذه الآية: واعْلَمْ أنَّ اللَّه تعالى لم يَفْرِضْ فَرِيضةً على عِبَادِه إلَّا جَعَل لها حدًّا مَعْلُوماً، وعَذَر أهْلَها في حَالِ العُذر غيْر الذِّكْرِ فلم يَجْعَلْ له حدًّا مَعْلُوماً ولم يعذُرْ أحداً في تَرْكِه إلَّا مَنْ كَانَ مَغْلُوباً على عَقْلِه، ولذا أمَرَهُم في جَمِيع الأحْوالِ قال اللَّه تعالى: ﴿يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١] ففِيه إشارةٌ إلى أنَّ الذِّكرَ أمْرُه عَظِيمٌ وفَضْلُه جَسِيمٌ.

قال عَبْد اللَّه بن عبَّاسٍ رضي اللَّه عنهما: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ أي باللَّيْلِ والنَّهَارِ في البَرّ والبَحْرِ، والسَّفَرِ والحضَرِ والغِنَى والفَقْرِ، والصِّحَّةِ والمَرَضِ، والسِّرِّ والعَلَانيةِ. ومثل هذا الذِّكْر لَا يكونُ إلَّا قلبيًّا أو خفيًّا يمكنُ في كلِّ حَالٍ، فعُلِمَ أن الذِّكْرَ الكثيرَ المَأْمُورَ به في القُرآنِ هو الذِّكرُ القلبيُّ، والذِّكر الخفيُّ المَوْسُوم في اصْطِلَاحِ الصّوفيَّةِ بالوقُوفِ القلبيِّ، وأمَر به في القُرآن المَجِيدِ قال تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ﴾ [آل عمران: ٤١].

فَثَبُتَ أنَّ الوقُوفَ القَلْبيَّ شَيءٌ أُمِر به في القُرآن، فالسَّعيدُ من يَقْضِي أوقَاته لتعلمه تحت إشرافِ المَشَايخِ.

أدِلَّةٌ مِنَ الأحَادِيثِ:

عَنْ أبي سعيدٍ رضي اللَّه عنه سُئِلَ رسولُ اللَّه ﷺ أيُّ العِبَادِ أفْضَلُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّه يَومَ القِيَامَةِ؟ قال: «الذَّاكِرُونَ اللَّه كَثِيراً». قُلْتُ: يا رَسُولَ اللَّه! ومَنِ الغَازي في سَبِيلِ اللَّه؟ قال: «لو ضَرَبَ بسَيْفِهِ الكُفَّارَ والمُشْرِكينَ حتى يَنْكَسرَ ويَخْتَضِبَ دَمًا لكَانَ الذَّاكِرُون أفْضَلَ مِنْه دَرَجَةً».

[رواه الترمذي؛ الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٣٩٦]

ما أبينَ هذا الحَديثَ في فَضلِ الذَّاكِرينَ كَثيراً. تَعالَوا نَلْتَمِسِ الآنَ دَلِيلَه مِنَ السُّنَّة النَّبويَّة. عَنْ عائشةَ رضي اللَّه عنها قالتْ: (كَانَ رَسُول اللَّه ﷺ يذكرُ اللَّه على كلّ أحيانِهِ).

[أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي؛ جامع الأصول ج ٤ ص ٤٧٨]

فكلمةُ (كلّ أحيانه) تَشْهَدُ أنّ المُرادَ الذّكرُ الخفيُّ والذّكْرُ القلبيُّ، فكانَتْ عادتُه المُبَاركةُ وسنّته البيْضَاء الاشْتِغَالَ بذِكْرِ اللَّه تعالى كلّ وقْتٍ، والمَشَايخُ الكِرامُ يمرنونَ سَالِكِي الطَّريقةِ بالوقُوفِ القلبيِّ لاتّباعهِ حتى يُصْبحَ حَالُ السَّالِكِ مُطَابِقاً لِمَا قِيلَ:

دست بكار دل بيار

ومعناه:

اليَدُ بالعَمَلِ والقَلْبُ في الحَبِيبِ

الوقُوفُ القَلْبيُّ أن يَلْفِتَ الإنْسَانُ نَفْسَه إلى قَلْبِهِ ويلْفِتَ قَلْبَه إلى اللَّه تعالى، ويفكّرَ في نَفْسِهِ مُضطَجِعاً وجَالِساً، ماشِياً ورَاكِباً. إنَّ قَلْبَه يقولُ:

اللَّه، اللَّه، اللَّه

وهذا هُوَ مَنْشَأُ الآياتِ والأحَاديثِ المَذْكُورَةِ، فثَبُتَ أنَّ تَعْلِيمَ الوقُوفِ القلبيِّ مُطَابِقٌ تماماً للقُرآنِ والحَدِيثِ.

٢ ـ الفِكْرُ (المراقبة):

المُرَاقَبةُ: مُشْتَقَّةٌ مِنَ الرَّقِيبِ وهُو المنتظرُ والشهيدُ والحارسُ. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]. وهي في اصْطِلَاحِ التَّصَوّفِ الجُلُوسُ في حبِّ اللَّه تَعَالَى، فالسَّالكُ يَجْلِسُ مُرَاقِباً مُنْعَزِلاً عن الدّنيا رَاغِباً عنها مُتَوَضّئاً مُسْتقبلَ القِبْلةِ مُغْمِضاً عينيْهِ نَاكِساً رأسَه، ويفكّر قليلاً أنْ لا أرضَ ولا سَماءَ، ولا إنْسانَ ولا حَيَوانَ ولا شَيْطانَ، ولا شيءَ،

ويفكّر أنه تأتيني رَحْمَةٌ مِنَ اللّه وتشغلُ قلبي فيزولُ بها ظَلَامُ قَلْبي وظُلْمته ويقُولُ قلبي:

«الـــلّـــه، الـــلّـــه، الـــلّـــه»

لا يَمِيلُ قَلْبُ السَّالِكِ إلى الذِّكْر في البِدَايةِ كلّما ينكّسُ رأسَه تَهْجُمُ وسَاوسُ الدّنيا كما قيل: كُلّ إناءٍ يترشّحُ بما فيه. ما أبْيَنَ دَلِيلاً على ملء القَلْب بالدّنيا أنْ ينكّسَ الإنْسَانُ رأسَه لِذِكْرِ اللّه فيُسيطِرُه وسَاوسُ الدّنيا. وَيَنْبَغِي للسَّالكِ ألّا يَحْزَنَ مِنه بَلْ يُفَكّرَ. لَا بدَّ أنْ يُفَكّرَ أنّه مُحْتَاجٌ إلى جُهْدٍ جَليلٍ، وما أخْزَانِي لو انْتَقَل بهذه الأفْكَارِ إلى الدّار الآخِرَةِ يَوْمَ تَظْهر مَكْنونَاتُ الصّدر. قال تعالى: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [العاديات: ١٠].

وقال: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق: ٩].

وتَأْتي مِنَ اللّه رَحْمَةٌ وتَدْخُلُ قَلْبَه عندما يَجْلِسُ السَّالِكُ ويَظُنّ أنّ رحمةَ اللّه تَتَوجّه إليه مُوافقاً لقَولِهِ عليه الصّلاة والسّلام فيما يرويه عن ربّه: «أنا عند ظَنّ عبدي بي».

[رواه البخاري ومسلم والترمذي؛ جامع الأصول ج ٤ ص ٤٧٦]

فلو هَجَسَتْ في قَلْبِهِ أفْكَارُ الدّنيا جميع الوقْتِ، وذِكْرُ اللّه للمحةٍ فَقَطْ لتهجُس أفكارُ الدّنيا في اليَوم الثاني أقلّ منه، وفي اليوم الثّالث أقلّ مِن الثاني، حتّى يأتي زَمَنٌ كلّما يَخْفِضُ رأسَه ذكر اللّه تعالى وتَخْرُجُ الدّنيا اللئيمةُ من قَلْبِهِ. قَالَ شَاعِرٌ ما معناه:

مَـوْجُـودةٌ فـي الـقَـلْـبِ صُـورَةُ الـحَـبـيـبِ
كُـلّـمـا أُخْـفِـضُ الـرَّقْـبـةَ قَـلِـيـلاً أرَاهَـا

يَغْلِبُ النُّعَاسُ خِلَالَ المُراقبةِ على بَعْضِ السَّالِكينَ وهذه عَلَامةُ اكْتِسَابِ الفَيْضِ ودَوَامُ الرقيّ بدلَالةِ قوله تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ﴾ فلا ضَرُورَةَ إلى الحُزنِ. السَّالكُ كالدّجَاجةِ تَجْلِسُ على البَيْضِ وتُسْخِنُها،

فالبَيْضُ الذي يُرى جَمَاداً في البِدَايةِ يدْخُلُ فيه الرّوح حتى تَخرجَ الأفْراخُ تشقشق، كذلك السَّالك يبدُو له قَلْبُه في البِدَايةِ كالحَجَرِ، ولَكِنْ بالجُلُوسِ مُرَاقِباً والتَّسْخِين يأتي وقت يَذْكُر قَلْبه:

«الـــلَّـــه، الـــلَّـــه، الـــلَّـــه»

والظَّاهر أنّ هذا العَمَلَ مُفِيدٌ بقَدْرِ ما يَبْدُو خَفِيفاً بالدَّوامِ على المُرَاقَبةِ تُصْبحُ حالَةُ السَّالكِ وِفْقَ ما قِيلَ:

يَلْتَمِسُ القَلْبُ مرَّةً أُخْرى أوقَاتَ تلكَ الفُرصةِ
نَجْلِسُ طَوِيلاً ذَاكِرينَ صُورةَ الحَبِيبِ العَشِيقِ

وطَرِيقَةُ الذِّكْرِ هذه لَيْسَتْ طَرِيقَةَ العُشّاقِ، بَلْ هي دأبُ المَحْبُوبِينَ. العُشَّاقُ يَصْرخُونَ وَيَبْكُونَ. والمَحْبُوبُ يديمُ الذِّكْرَ في القَلْبِ، قال شَاعِرٌ ما معناه:

مَتَى يَصْرُخُ مَنْ كَانَ صَادِقاً في العِشْقِ
على شِفَاهِهِمْ خَتَمَ السّكُوتُ ويذكُرونَ بالقُلُوبِ

وفي القُرآنِ والحَديثِ دَلَائِلُ واضِحَةٌ على هذا النوعِ مِنَ الذِّكْرِ.

دَلَائِلُ مِنَ القُرْآنِ المَجِيدِ:

قَالَ اللّه تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]. قَالَ عُلَمَاءُ التَّفْسيرِ: معنى ﴿فِى نَفْسِكَ﴾ أي في قَلْبِكَ.

[انظر كتاب التسهيل لعلوم التنزيل للشيخ الإمام محمد بن أحمد بن جزي الكلبي المتوفى ٧٩٢ ـ ج ٢ ص ٦٠]

وَقَدْ أمَرَ فيها بالذِّكْرِ إذْ قوله: ﴿ٱذْكُرْ﴾ صِيغَةُ أمْرٍ، فلو اتَّخَذَ المَشَايخُ الذِّكْرَ والمُرَاقَبَةَ لهذهِ الآية، فَهَلْ هذا امْتِثَالٌ بأَمْرٍ أو هوَ بِدْعَةٌ؟ فعلى النَّاقِدِينَ على الذَّاكِرِينَ أنْ يُفَكِّرُوا بِجَدٍّ وتؤدَةٍ.

ومَعْ قَطْعِ النّظرِ عن هذا فمعنى ﴿ فِي نَفْسِكَ﴾ (في فِكْرِكَ) أو (في همّكَ) أو (في تأمّلك) ولا يرادُ به بلسانِكَ. وهذه الآية كَبُرهانٍ مبينٍ على النّاقِدينَ على المُراقبةِ. قال المُفتي محمّد شفيع رحمه اللّه تعالى في مَعَارِفِ القُرآن: المرادُ بـ: تضرّعاً وخِيفَةً الذّكر القلبيّ ودون الجَهْرِ من القَولِ الذّكْر اللّساني، فعُلِمَ بذلك ثبوتُ الذّكْر القلبيّ، كَمَا عُلِمَ تَفَوّقُ الذّكْرِ القلبيّ على الذّكْرِ اللّسَانِي.

سَمِعْنا بَعْضَ النّاقِدينَ يقولُونَ: كَيْفَ يَثْبتُ الذّكْر القَلْبيّ مِنَ القُرآنِ الكَرِيم؟ فَنقولُ: لا يَجِبُ ثُبوتُ كلّ شيءٍ مِنَ القُرآنِ الكَريم، وإلّا فَلَا حَاجَةَ إلى الحَديثِ الشّريفِ، ولَكَانَ القُرآنُ كَافياً، بلْ لَا حَاجَةَ إذاً إلى صَاحِب القُرآنِ محمّد ﷺ، ولكَانَ نُزُولُ جِبريلَ بالقرآنِ كافياً. الذين يَلْتَمِسُونَ كلّ شَيْءٍ مِنَ القُرآنِ الكَريم ما نَدْري ما ظَنّهم بالحَدِيثِ الشّريفِ، لعَلّهُمْ وجَدُوا عَدَدَ رَكَعَاتِ الصّلَواتِ وَتَفَاصِيلَ أحْكَامِ الزّكَاةِ في القُرآنِ الكَريم، وبَقِيَ التِمَاسُ دَلِيلِ المُراقَبةِ فقطْ. وهذا نَقْصٌ. وَتَعَالَوا إلى الجَوابِ. قال تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا﴾ [الكهف: ٢٨].

هذه الآيةُ دليلٌ واضحٌ على أنّه لا يجوزُ لنا أنْ نطيعَ من قَلْبُه غَافِلٌ عن ذِكْرِ اللّه تعالى. ويفهم منه أنّ علينا إطاعةَ مَنْ في قَلْبِهِ ذِكْرُ اللّه، ولا يُمْكِنُ الإتيانُ بدَليلٍ أوْضحَ منه على الذّكر القلبيّ.

قال تعالى: ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل: ٨] في هذه الآية صيغتا أمْرٍ.

١ ـ اذْكُرِ اسْمَ ربّكَ. النّكتة المهمّة ههنا أنّه لم يَقُلْ: اذْكُرْ ربّكَ، وكان يكْفِي ظاهراً ولكِنْ قَالَ: ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ﴾ إنّ الربَّ اسمُ صِفَةٍ، فالمَقْصُودُ ههنا الأمْرُ بذكرِ اسم الذاتِ «اللّه» فذكْرُ اسم اللّه ذِكْرُ اسمِ الربِّ، فالثّابتُ أنّ القرآنَ الكريمَ أَمَرَ بذِكْرِ اسْمِ اللّه تعالى.

٢ ـ وتبتّلْ إليه تبتيلاً. التَّبتلُ: هو اختيارُ الانْقطَاعِ للمَحْبوبِ عمَّا سِواهُ، فكأنَّ اللَّهَ تعالى يقولُ: انْقَطِعُوا عَنِ الخَلْقِ وصِلُوا بالخَالِقِ.

وهذا الانْقِطَاعُ عن الخَلْق لا يَحْصَلُ جَالِساً في البيتِ، لا بدَّ أنْ يعْملَ له عَمَلٌ ولَكِنْ ماذا يَعْمَلُ له؟ ذكَرَ المَشَايِخُ طَريقاً يَسِيراً هي أنْ تَخُصَّ وقْتاً ما كُلّ يوم وتجلسَ مُنعزلاً متوجّهاً إلى شيء مُغْمِضاً عينيْكَ، تتذكّر حينئذٍ أنّي اليومَ أغمضُ عيني باخْتِياري وسَوْفَ يأتي يومٌ تغمضُ هذه الأعْيُنُ للأبدِ، فتثبتُ في القَلْبِ اعْتِقادَ ضعفِ الدّنيا وشَوْقَ الانْقِطاعِ عَن الخَلْقِ والاتّصالِ باللّه سبحانه وتعالى، وإنْ شئتَ القِ على رأسِكَ ثَوْباً وتذكّر أنّي ألقي اليوم الثوبَ على رأسي باخْتياري، وسَوْف يأتي وقْت أكفّن فيه فتزداد به كيفيّة التبتّل. يثبتُ هذا الدّرس بالجُلوسِ بهذه الهيئةِ سُدسَ السّاعةِ أو رُبْعها أو نِصْفها. قطراتُ الماءِ ناعمةٌ جداً ولَكِنْ لو تَواصَلَ تَقاطُر الماءِ على الحَجَرِ مُتواصِلاً يجعلُ فيه فُتْحةً، كذلك الإنْسَانُ لو جَلَسَ هكذا كل يَومٍ يذكرُ:

«الـــلّـــه، الـــلّـــه»

لسَوفَ يأتي وقْتٌ يجْعَلُ ذِكْرَ اللّه تعالى في قَلْبِهِ سَبيلاً. ومَجْمُوعُ هذه الكيْفيّةِ يُسَمّى مراقبةً، وهو المَقْصُودُ من هذه الآية، وسَمّوا هذا التّمرينَ بالتبتّلِ أو بالمُراقبةِ أو بالمُحَاسبةِ، ولَكِنْ لا مَفَرَّ مِنْ هذه الحقيقةِ أنّها مأمورٌ بها في القُرآنِ الكَريمِ، فَثبُتَ أنَّ المراقبةَ موافقةٌ لتوجِيهَاتٍ قُرآنيةٍ.

دَلَائِلُ مِنَ الأحَاديثِ:

وَرَدَ في بِدايةِ صحيح البُخَاريّ في بَابِ: كَيْف كان بَدْءُ الوحْي أنَّ النبيّ ﷺ يَخْلُو بغارِ حراءٍ أياماً عديدةً متواصلةً. ما كَانَتْ في ذلك الوقتِ صَلَاةٌ ولا قِرَاءة قرآنٍ ولا صَوْم فماذا كَانَ يَفْعَلُ؟ ذَكَرَ المحدّثونَ أنّه كان

يَقْضِي وَقْتَه في ذِكْرِ اللّه تعالى والتَّوجهِ إلى اللّه تعالى والانْقِطَاعِ عَنِ الخَلْقِ وهي المُسَمَّاة بالمراقَبةِ. يحيي المَشَايخُ هذه السُّنَّةَ. وإن اعْتَرَضَ أحدٌ أنه كان قَبْلَ إعْلَانِ النبوَّةِ فسَوفَ يردّه ما أمَرَه النبيُّ ﷺ بعد إعْلَانِ النبوَّة. فَعَنْ أبي هُريرة رضي اللّه عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ فيما يَرْوي عن ربِّه تبارك وتعالى: «اذكُرني بعدَ العَصْرِ وبَعْدَ الفَجْرِ أَكْفِكَ فيما بَيْنَهُمَا».

[أخرجه أحمد، كذا في الدر]

بهذه المُنَاسبةِ يأمرُ المشايخُ بهذه المُراقبةِ صباحاً ومساءً.

وفيما يَلي أجْوبة عن أسئلةٍ تتواردُ حَوْل الذِّكر والمُراقبةِ.

السؤال الأول: كَلِمةُ الذِّكْرِ وردَتْ للقُرآنِ أيضاً، فكُلّما أمر بالذِّكر ألَا يحسنُ أنْ يرادَ بها تلاوةُ القرآنِ؟

الجواب: كَلِمةُ الذِّكرِ وإن استُعْمِلتْ للقرآنِ الكَريم، ولَكِنّ الذِّكْرَ وتِلَاوةَ القُرآنِ المجيدِ عبادتَانِ برأسَيْهِما. رَوَى الطّبرانيُّ في حديثٍ طويلٍ لأبي ذرٍّ: «أوصِيكَ بتَقْوى اللّه فإنه رأسُ الأمْرِ كلّه وعليكَ بتلَاوةِ القُرآنِ وذِكْرِ اللّه فإنَّه ذِكرٌ لكَ في السَّماء ونُورٌ لكَ في الأَرْضِ».

[الجامع الصغير عن الطبراني]

أمَرَ في هذا الحَديثِ بتلَاوةِ القُرآنِ وذِكْرِ اللّه تعالى فتبيَّن أنَّهما عِبَادَتانِ برأسيْهِما، فلا يُرادُ تلَاوةُ القرآنِ عندما أمَرَ بذِكْرِ اللّه تعالى.

السؤال الثاني: يأمُرُ المشايخُ بالأوْرَادِ صَبَاحاً ومساءً هل لَهُ أصْلٌ؟

الجواب: نَعَمْ، قال اللّه تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [آل عمران: ٤١]. في هذه الآية نصٌّ بالأمْرِ بالتَّسبيحِ صباحاً ومساءً.

السؤال الثالث: هل تجوزُ المراقبةُ مُسْتَلقِياً؟

الجواب: نَعَمْ، يُحاولُ أنْ يُراقبَ جالساً متأدّباً. وإن حَدَثَ عُذْرٌ أو مَرَضٌ تجوزُ المُراقبةُ مُضْطجعاً. قال اللّه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١] كلمة ﴿وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ تدلّ على جوازِ ذِكْرِ اللّه تعالى مُسْتلقِياً.

السّؤال الرابعُ: بعضُ النّاسِ يَقْفِزُونَ خِلَال المُراقبةِ هَلْ هذا جَائِزٌ؟

الجوابُ: طَرَيَانُ الجَذْبِ ثابتٌ بالقُرآنِ والحَدِيثِ، ففي بَعْضِ الآيات: ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء: ١٠٧] وفي بعضِها ﴿خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨] وكذلك يدلّ عليه ما جاء في الحديثِ: «فخرّ للّه ساجداً». قَالَت المشايخُ: يجبُ على السّالكِ ضَبْطُ كيفياتِه. وإن لمْ يستَطِع الضّبطَ فلْينهِ المُراقبةَ. هذا هو الأَوْلَى ولا يحْسنُ المُلَاعبة.

السّؤال الخامسُ: بماذا يَكُونُ تقدّم السّالكِ أكْثَر، بالذّكْرِ أو بالفِكْرِ؟

الجوابُ: أولاً يكون التّقَدّمُ بالذّكْرِ حتى يَحْصُلَ فناءُ النّفْسِ، ثم بالفِكْرِ، ثم يأتي مَقَامٌ لا يتقدّمُ فيه السّالكُ لا بالذّكْرِ ولا بالفِكْرِ، بل برحْمَتِه تعالى فقط.

السّؤال السادسُ: ما مَعْنَى جَرَيَانِ القَلْب؟

الجوابُ: جَرَيانُ القَلْبِ له معنى عند العَامّةِ ومَعْنَى عندَ الخَوَاصّ.

فمعْنَاهُ عند العَوامّ شُعُورُ حَرَكَةٍ نَاعِمَةٍ سريعةٍ في القَلْب، ومعناه عند الخواصّ أن يجري القَلْبُ على الجَوَارِحِ أي يسيطرُ القَلْبُ على الأعْضَاء والجَوارِحِ، فيكونُ استعمالُها حَسَبَ الشريعةِ والسُّنّة.

السّؤال السابعُ: قَالَ الإمَامُ ابن تيميّةَ في كِتَابِهِ العبوديّة:

﴿ذِكْرُ اسْمِ الذّات ـ اللّه، اللّه ـ بدونِ تَرْكيبٍ مع كَلِمَةٍ أخْرَى بِدْعَةٌ. لم يأمُرِ اللّه تعالى أحَداً بذِكْرِ الاسْمِ مُفْرداً، ولمْ يشرّعْ للمُسْلمينَ اسْماً

مُفْرداً مجَرّداً لَا يُفِيدُ الاسْمَ المُفْردَ المجرّدَ للإيمانِ، والثَّابتُ بالأحَاديثِ النبويَّةِ تعليمُ الجُمْلة المركّبةِ فقَطْ مثل: سُبْحَانَ اللَّه، الحَمْد للَّه، اللَّه أكْبَرُ أليْس بصحيح؟).

الجوابُ: أولاً: «سُبْحانَ اللَّه» ليْسَتْ جُمْلَةً مركّبةً، بل هي مُضَافٌ ومُضَافٌ إليْهِ. قال البيضاويُّ تحت قوله تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا﴾ [البقرة: ٣٢] سُبْحَانَ: مَصْدرٌ لا يكادُ يُسْتَعْمَلُ إلا مضافاً منْصُوباً بإضمارِ فِعْلِه.

[تفسير البيضاوي]

بناءً عليه نَقُولُ: إن اسْمَ الذاتِ مُنَادى حُذِفَ عنه حَرْفُ النّداء جوازاً كما حذف في هذه الآية: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ [يوسف: ٢٩].

عرّف ابنُ الحَاجبِ المُنَادى بقوله: هو المَطْلُوبُ إقْبَالُه بحَرْفٍ نائبٍ مَنَابَ أدعُو.

[الكافية]

فـ «اللَّه» أصْلُه: «أدعو اللَّه» وهو كَلَام تامّ.

وثانياً: قد يذكرُ المبتدأ في الجُمْلةِ ويحذفُ الخَبَرُ، فاسْمُ اللَّه تعالى مبتدأٌ والخَبَرُ محذوفٌ كالخَالِقِ والرّازقِ والقَادرِ، لَعَلَّ الإمامَ ابنَ تيميةَ أُشْكِلَ عليه خِلَالَ الكَلَامِ على مَوْضُوعٍ وإلَّا فَلَا مَسَاغَ للإشْكَالِ بعد هذه الدّلائلِ.

وثالثاً: يستدلُّ على ذِكْرِ اسمِ اللَّه تعالى بلا ضمّ ضميمةٍ من عدَّة آياتٍ مثل:

١ ـ ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٥].

٢ ـ ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل: ٨].

أمَرَ في هذه الآياتِ بذِكْرِ اسْمِ الربّ جلّ مَجْده، فإنْ سأل سائلٌ ما هو اسْمُ الربِّ؟ فيُقَالُ: هو «اللَّه».

ذُكِرَ في كُتُبِ عِلْمِ الكَلَامِ أنَّ («اللَّه» علمٌ للذَّاتِ الواجِبِ الوجُودِ المستجْمِعِ لجميع صِفَاتِ الكَمَالِ المُنزهِ عن النَّقْصِ والزَّوالِ) فقد ثَبُتَ بهذه الآياتِ جواز ذِكْرِ اسْمِ ذات اللَّه جلَّ مَجْدُه، ويُقَالُ له ذِكْرُ اسْمِ الذات يشتغلُ السَّالكونَ في الطَّريقةِ في هذا الذِّكْرِ كلّ آنٍ وكلّ ساعةٍ قِياماً وقُعوداً وعلى جُنُوبِهِمْ، وقد قِيلَ: يُمْكِنُ وَقْفُ الطَّبلِ وانْقِطَاعُ السِّلْكِ، ولٰكِنْ لا يُمْكِنُ لأحدٍ أنْ يَمْنَعَ البُلْبُلَ عَنِ الغِنَاءِ، كَذَلِكَ لا يَمْنَعُ المُحِبَّ أحَدٌ عَنْ ذِكْرِ اسْمِ المَحْبُوبِ. لنتكلمْ لإيضَاحِ علاقةِ المَحْبوبِ والمحبِّ في ضَوْءِ القُرآنِ الكَريم.

يَنْبغي أنْ تكُونَ المحبَّةُ مشوقةً شديدةً.

يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

يزدادُ الحبُّ بسماعِ الكَلَامِ عن حُسْنِ المَحْبُوبِ وجَمَالِه. يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢].

لا يكونُ للمُحِبِّ مَطْلُوبٌ سِوَى المَحْبُوبِ. دليله قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

يطمئنُّ القَلْبُ بذِكْرِ المَحْبُوبِ، والدّليل عليه: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

يَتَمَلْمَلُ القَلْبُ بسَمَاعِ ذِكْرِ المَحْبُوبِ دلّ عليه قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢].

عِنْدَما يُنهَى المُحِبُّ عن ذِكْرِ المَحْبوبِ يَنْبذُ جميعَ الدّنيا ويدفَعُها. قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١] دليلٌ واضحٌ عليه.

عن أنس رضي اللَّه عنه، أن النبيَّ ﷺ قال: «لا تَقُومُ السَّاعةُ على

أحدٍ يقول اللّه اللّه»، وفي روايةٍ أخرى: «حتّى لا يُقَالَ في الأرْضِ اللّه اللّه».

[أخرجه مسلم وأخرج الترمذي الثانية؛ جامع الأصول ج ١٠ ص ٣٩٤]

لو لمْ يَجُزْ ذِكْر الاسْم المُفْردِ المجَرّدِ يقُولُ النبيُّ ﷺ اسْمَ اللّه مرةً واحدةً. تَكْرارُ اسْمِ الذّاتِ اللّه اللّه دَلِيلٌ قويٌّ على جَوازِ ذِكْرِ اسْم الذّاتِ وشرعيّتِهِ وإفَادتهِ للإيمَانِ الدّليل العقليّ. المُحِبُّ يَتَمَلْمَلُ بذِكْرِ المَحْبُوبِ.

قَالَ قَائِلٌ: لمْ تَخْتَفِ المَحَبّةُ سَاعةً متى ذَكَرَ اسْمَكَ أحَدٌ، وكذلك يَسْكُنُ ويطمئنُّ القَلْبُ بذِكْرِ المَحْبُوبِ.

قَالَ قائلٌ: ما أشدّ رَبْطَ الطّمأنينةِ باسْمِكَ، يأتي النّوم على الشّوكِ بالرّاحة. السّالكُ إذا كَرّرَ ذِكْرَ اسْمِ الذّاتِ سَيْطَر على عُضْوٍ عُضْوٍ منه إثرَ المَحَبّةِ الإلٰهية اللّه اللّه. ما أحْلَى هذا الاسْمَ يصبحُ رُوحي كلّه الحليب الحلو.

فإن قِيلَ: ما الفَائِدةُ بذِكْرِ اسْمِ اللّه اللّه وبتَكْرَارِهِ؟ فنقُولُ: سَنُكَرّرُ اسْمَكَ وإنْ لم يَكُنْ فائدة. نَحْنُ العَاشِقُونَ الشّائِقُونَ المُحِبّونَ لاسْمِكَ.

٣ ـ الصّلاةُ على النبيّ ﷺ:

ما أكْثَرَ مِنَنَ سيّد السّاداتِ ومَعْدَنِ السّعاداتِ النبيّ الكريم ﷺ على الأمّةِ المَرْحُومةِ. لا يُسْتَطَاعُ أداءُ حُقُوقِها، ولا يُمْكِنُ إحْصَاءُ عَدَدها، فمهما دَاوَمَ السّالكُ على الصّلاة عليه بالمَحَبّةِ والإخْلَاصِ، فهو قليلٌ فَضْلاً عما سَيَهبُ اللّه تعالى من مِئَاتِ الأجُورِ والثّوابِ عليها بلُطْفِهِ وكَرَمِهِ. ما زَالتِ الصّلاةُ على النبيّ ﷺ عَمَلَ الصّبحِ والمَسَاءِ يدلّ على فَضْلِها الآياتُ والأحاديثُ الكثيرة نَذْكُرُ بَعْضَهَا.

أدلة مِنَ القُرآن الكَريم:

قال اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦] بدأتِ الآيةُ بحَرْفِ التَّوكيدِ «إنَّ» ثُمَّ جَاءَتْ بصيغةِ المُضَارعِ الدَّالةِ على الاسْتِمْرارِ والدَّوامِ فالمَعْنى أنَّه لا شَكَّ أنَّ اللّه ومَلَائِكَتَهُ يُصَلُّون دائماً أبداً على النبيِّ الكَريمِ، فأيّ عزٍّ وكَرَمٍ فَوْقَهُ، فإن اللّه تعالى أضافَ الصَّلاةَ أوّلاً إلى نَفْسِه، ثم أضافَهَا إلى المَلَائكَةِ، ثمَّ أمَرَ بها المُؤمِنينَ. جَزَاء الإحْسَانِ بمثْلِه مِنْ مَكَارِمِ الأخْلَاقِ، والنبيُّ ﷺ أعْظَمُ النَّاسِ إحْسَاناً إلينا، فاللّه سُبْحانه وتعالى أرْشَدَنَا إلى مُكَافأةِ إحْسَانِه. وللنبيِّ ﷺ شأنٌ عجيبٌ في الحُبِّ فإن اللّه تعالى ذَكَر اسْمَه مع اسْمِه مَعَ كَلِمَةِ الشَّهَادةِ، وذَكَر طَاعَتَه مع طَاعَتِه، ومحبَّتَه مع محبَّتِهِ، وصَلَاةَ المُؤمنينِ مع صَلَاتهِ عليه، قال الشَّاهُ عبد القادر رحمه اللّه تعالى: لِطَلَبِ الرحْمةِ مِنَ اللّه تعالى لنبيِّه وآله قبوليَّةٌ عظيمةٌ تنزلُ عليه مِنَ الرَّحْمةِ ما يليق بشأنِهِم، وينزل على السَّائل عَشْرُ رحَمَاتٍ بطلبهِ رحْمَةً، فمَنْ شاء الآن جمع ما يريدُ.

نَقَلَ العلَّامة السَّخاويُّ عن الإمامِ زين العَابدين عليِّ بنِ الحسينِ بنِ عليٍّ رَحِمَهمُ اللّه تعالى ورضي اللّه عنهم قال: عَلَامةُ أهْلِ السُّنةِ كَثْرةُ الصَّلاةِ على رسولِ اللّه ﷺ.

[القول البديع ص ٥٢]

دلائل من الأحاديث النبوية:

عَنْ أبي هريرة رضي اللّه عنه، أنَّ رسولَ اللّه ﷺ قال: «مَنْ صلَّى عليَّ صَلَاةً واحِدةً صلَّى اللّه عليه عَشْراً».

[رواه مسلم وأبو داود والنسائي والترمذي وابن حبان في صحيحه؛ الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٤٩٤]

رَوَى الطَّبرانيُّ أنَّ رسولَ اللّه ﷺ قَالَ: «مَنْ صَلَّى عليَّ صَلَاةً واحدةً صلَّى اللّه عليه عَشْراً ومَنْ صلَّى عليَّ عَشْراً صلَّى اللّهُ عليه مائةً، ومَنْ صَلَّى عليَّ مَائةً كَتَبَ اللّهُ بين عينيْه براءةً مِنَ النِّفَاقِ وبراءةً مِنَ النَّارِ وأسْكَنَه اللّهُ يومَ القيامةِ مَعَ الشُّهداءِ».

[القول البديع ص ١٠٣، الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٤٩٥]

وعَنْ جابرٍ رضي اللّه عنه قَالَ: قَالَ رسولُ اللّه ﷺ: «مَنْ صلَّى عليَّ في كلِّ يوم مائةَ مرةٍ قَضَى اللّه له مائةَ حاجةٍ، سبعينَ لآخرتِهِ وثلاثينَ منها لدُنياهُ».

[القول البديع ص ١٢٨]

ولهذا يأمُرُ المشايخُ النقشبنديونَ السَّالكينَ بالصَّلاة على النبيِّ ﷺ مائةَ مرةٍ كلّ صباحٍ ومساءٍ وقولهم: اللّهمّ صلّ على سيِّدِنا محمّدٍ وعلى آلِ سيّدنا محمَّدٍ وبَارِكْ وسَلِّمْ، صيغة صلاة مختصرة وجامعة.

ومِن ثَمَراتِ الإكْثَارِ مِنَ الصَّلاةِ على النَّبيِّ ﷺ تَكْفِيرُ الخَطَايَا وتَزْكِيةُ الأعْمَالِ، ورَفْعُ الدَّرجَاتِ، ومغفرةُ الذُّنوبِ واسْتِغْفَارُها لقَائِلِها، وكتابةُ قِيراطٍ مِثْلِ مِنَ الأجْرِ والكَيْلِ بالمِكْيال الأوْفَى، وكفاية أمْرِ الدّنيا والآخرةِ لمن جَعَلَ صلَاتَه كلّها صَلَاةً عليْهِ، ومحْوُ الخَطَايا وفَضْلُهَا على عَتْقِ الرّقَابِ، والنَّجَاة بها مِنَ الأهْوالِ وشَهَادةُ الرَّسُولِ بها، ووجُوبُ الشَّفَاعَةِ ورِضَى اللّه ورَحْمَته، والأمان مِنْ سَخَطِه، والدّخولُ تَحْتَ ظلّ العَرْشِ، ورجْحَان المِيزانِ ووُرُودُ الحَوْضِ، والأمانُ مِنَ العَطَشِ والعِتْقُ مِنَ النَّارِ، والجَواز على الصّراط ورؤية المقْعَد المقرّب مِنَ الجَنَّةِ قبل المَوتِ، وكثرةُ الأزْوَاج في الجَنَّةِ ورجْحَانُها على أكْثَر مِنْ عِشرينَ غزْوَةً، وقيامها مقام الصّدقةِ للمعسرِ، وأنها زكاةٌ وطهارةٌ، ويزيد المَالُ ببركتها، وتنقضي بها من الحَوائجِ مائةٌ بلْ أكْثَرُ وأنّها عبادةٌ، وأحبّ الأعْمَالِ إلى اللّه، وتزين المجَالِس، وتنفي الفَقْرَ وضيقَ العَيْشِ ويلتمسُ بها مظانّ

الخَيْر، وأنَّ فَاعِلَها أولى النَّاس به، وينتفعُ هو وولده وولد ولده بها، ومَنْ أهديتْ في صحيفتهِ بثَوابِها، وتقرّب إلى اللّه عزّ وجلّ وإلى رسوله، وأنّها نُورٌ وتنصُرُ على الأعداءِ وتطهّرُ القَلْبَ مِنَ النّفَاقِ والصَدأ، ويوجب محبَّةَ الناسِ ورؤيةَ النبيِّ ﷺ في المَنَامِ.

[القول البديع ص ١٠١]

فعلَى سَالِكِي الطَّريقةِ أنْ يُقَدِّمُوا هديةَ الصَّلاةِ صُبْحَ مَسَاء بمحبَّةٍ وأدَبٍ إلى النبيِّ ﷺ.

عدة أسئلة تُسأل عموماً عن الصلاة على النبي ﷺ وأجوبتها:

س ١: اللّهُ وَمَلَائِكَتُه يصلّونَ على النبيّ ﷺ فما الحَاجَةُ إلى صَلَاتِنا؟

جـ: صَلَاتُنا على النبيّ ﷺ لَيْسَتْ لأنّ النبيَّ ﷺ مُحْتاجٌ إليها وإلّا فَلَا حَاجَة إلى صَلَاةِ المَلَائكةِ بَعدَ صَلَاةِ اللّهِ عليه، بَلْ صَلَاتُنا لإظْهَارِ عَظَمَةِ النبيّ ﷺ وصَلَاتُنا سَبَبٌ لكفَّارةِ ذُنُوبِنا وارْتِفَاعِ درجاتنا.

س ٢: سَمِعْنا أنَّ النبيَّ ﷺ سَوْفَ يَضَعُ في كَفةِ شَخْصٍ مِنْ أمّتهِ بطاقةً صغيرةً فيثقلُ الميزانُ كَيْفَ ذلك؟

جـ: المَنْزِلَةُ عند اللّه تعالى للإخْلَاصِ، كُلّما ازْدَاد الإخْلَاصُ ازدادَ الوزْنُ، ودَلِيلهُ رجْحَان بِطَاقة صغيرة مَكْتُوبٌ عليها كَلِمَةُ الشَّهادةِ على تِسْعةٍ وتسعينَ دفتراً للذنوب، كلّ دفترٍ ممتدّ مُنْتَهى بَصَرِهِ.

س ٣: هل يَجُوزُ أن نقولَ: صليتُ على مُحمَّدٍ، أو أصَلّي على محمَّدٍ.

جـ: إنّ النبيَّ ﷺ مُنَزَّهٌ عن العُيوبِ بينما نَحْنُ مجموعة عُيوبٍ ونَقَائصَ، وكيف يثني من هو مجموعة العيوبِ لمَنْ هو سَالِمٌ من كلّ عَيْبٍ؟ قال قائل: ما معناه:

إنْ أغْسِلْ فَمِي بالمِسْكِ وَمَاءِ الوَرْدِ ألْفَ مرَّةٍ
فالتفوّه باسْمِكَ الآنَ كَمَالُ سُوءِ الأدَبِ

إذنْ نَطْلبُ مِنَ اللّه تعالى في قَولِنا: اللّهمّ صلّ على محمّدٍ أنْ تَنزلَ الصّلاةُ والرّحمةُ من الربّ الطّاهِرِ على النبيّ الطّاهرِ.

س ٤: هل يجوز للحائضِ أن تُصَليَ على النبيّ ﷺ؟

جـ: يَجُوز للحائضِ التفوّه باسْمِ اللّه تعالى وباسْمِ النبيّ ﷺ والنطْقُ بالشّهادتيْنِ، والاسْتِغْفارُ، والصّلاة على النبيّ ﷺ. قَال الفُقَهاءُ: المُعَلّمةُ التي تُدَرّس وتعلّمُ تلميذتَها في هذه الحَالة عليها أن تُعَلّمَها كلمةً كلمةً، ولا تمسّ المصحفَ بيدها.

س ٥: هل تجوز الصلاة على النبيّ ﷺ بدونِ وضوءٍ؟

جـ: يجوزُ، ولكنّ الصّلاةَ على النبيّ ﷺ طَاهِراً نورٌ على نورٍ.

س ٦: ما الحِكْمَةُ في الإكْثارِ مِنَ الصّلاةِ على النبيّ ﷺ يَوْمَ الجُمُعَةِ؟

جـ: وَرَدَ في بعضِ الرواياتِ أنّ النبيّ ﷺ انتقَلَ مِنْ صُلبِ أبيهِ إلى بَطْنِ أمّهِ يَوْمَ الجُمُعَةِ، وأيضاً كما أنّ النبيّ ﷺ سيّدُ الأنبياء كذلك يَوْمُ الجُمُعةِ سيّدُ الأيامِ. فتحقق بين يَومِ الجُمُعة وكثرةِ الصّلاة مناسبةٌ.

س ٧: يبدُو في الصّلاةِ بقولنا: كَمَا صَلّيْتَ على إبْراهيمَ بعد قولنا: اللّهمّ صلّ على محمّدٍ. إنّ لإبراهيمَ عليْهِ السّلامُ أفضليةً.

جـ: يعرفُ علماءُ العربيةِ أنّ كَلِمةَ كَمَا قد تُذْكَرُ للأعْلَى وقَدْ تُذْكر للأدْنى. قال تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور: ٣٥].

وأيّ مناسبةٍ بين اللّه عزّ وجلّ وبين السّراجِ؟ ذَكَر الحَافِظ ابن حَجرٍ رحمه اللّه فِي الفتح الباري عَشْرةَ أجوبةٍ عنْ هذا السؤالِ، وذَكَر في مَكْتوباتِ المجدّد تفاصِيله.

٤ ـ الاستغفارُ:

الاسْتِغفارُ مائةَ مرةٍ كل يومٍ صباحاً ومساءً. مشايخُ السّلسلةِ

النقشبندية يستغفرونَ بصيغةٍ جامعةٍ ومختصرةٍ جداً وهي: أَسْتَغْفِرُ اللَّه ربِّي مِنْ كلّ ذنبٍ وأتوبُ إليه.

أدلةٌ مِنَ القُرآنِ الكَريم:

دليل ١: قال تعالى: ﴿ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ [هود: ٥٢] أمَرَ في هذه الآيةِ الكريمةِ بالاسْتِغْفَارِ، فمشايخُ نقشبند يستغْفِرونَ بغايةِ نَدَامةٍ كلّ يومٍ عملاً بهذا الأمر ويرشدونَ السَّالِكينَ بهذا التَّوجّهِ.

دليل ٢: قَالَ نُوحٌ عليْهِ السَّلامُ لقَومِهِ: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ [نوح: ١٠ ـ ١٢].

دليل ٣: قَالَ تَعَالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

قَال ابنُ عباسٍ رضي اللَّه عنهما في تَفْسير هذه الآية: كَانَ فيهم أَمْنَانِ: النبيّ ﷺ والاستغفار، فذهَبَ النبيُّ ﷺ وبقيَ الاسْتِغْفارُ.

[ابن كثير ج ٢ ص ٣١٢]

دليل ٤: قال تعالى: ﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٧ و١٨].

دلائل من الحديث النبويّ الشريف:

الدليلُ ١: عنْ أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ يقولُ: «واللَّهِ لأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وأتُوبُ إليه في اليومِ أكْثَرَ مِنْ سبعينَ مرةً».

[صحيح البخاري]

الدّليلُ ٢: قَالَ البيضاويُّ في التّفسيرِ: ورُوي عنه ﷺ: «إني لأَسْتَغْفِرُ اللّه في اليَوْمِ والليلةِ مائة مرّة».

[رواه البخاري والنسائي وابن ماجه؛ تفسير البيضاوي ص ٥٢١]

قَالَ المُحَدّثُونَ: التّكَلّمُ مِنَ النّبيِّ ﷺ بصِيغَةِ الاسْتِغْفَارِ كلّ يَوْم سبعين مرة أو مائة مرة لإظهار العُبُوديّةِ، وتَعْلِيمُ أمّتِهِ وإلّا فَهُو كانَ مَغْفُوراً له، وقوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] دَلِيلٌ قويٌّ عليه.

الدّليل ٣: عَنْ أبي بَكْرٍ، عَنْ رَسُولِ اللّه ﷺ أنّه قال: «عَلَيْكُم بِلَا إلٰه إلا اللّه والاسْتِغْفَارِ، فأكْثِروا منها فإنّ إبليسَ قال: أهْلَكْتُ النّاسَ بالذّنوبِ وأهْلَكُوني بلَا إلٰه إلا اللّه والاسْتِغْفار».

[تفسير المظهري ج ١٠ ص ٤٨٤]

الدّليل ٤: قَالَ العلّامةُ ابنُ كَثِيرٍ رحمه اللّه وهو يَتَكَلّمُ عَنِ الاستغفارِ: عن ابنِ عباسٍ رضي اللّه عنهما قالَ: قالَ رَسُولُ اللّه ﷺ: «مَنْ لَزِمَ الاسْتِغْفَارَ جَعَلَ اللّه له مِنْ كُلِّ همٍّ فَرَجاً ومِنْ كلِّ ضِيقٍ مَخْرجاً ويرزُقُه من حيثُ لا يَحْتَسِبُ».

[أبو داود ج ١ ص ٢٢٠، تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٤٦٠]

الدّليل ٥: عَنْ فُضَالَةَ بنِ عُبيدٍ أنّ رَسُولَ اللّه ﷺ قَالَ: «العَبْدُ آمنٌ مِنْ عَذَابِ اللّه ما اسْتَغْفَر اللّهَ عَزّ وجَلّ».

[ابن كثير ج ٢ ص ٣١٢]

فعلَى السّالكِ أنْ يَسْتَغْفِرَ ويَتُوبَ مِنْ ذُنُوبه كلّ يوم، ويرَى ذَلك واجباً. وفي إكْمالِ الشّيم: يا صَدِيقي ارتِكَابُك بالذّنب برجَاء التّوبةِ وتأخِيرُك التّوبة برجاءِ التوبةِ دليلُ فُقْدانِ عقْلِك. قال اللّه ربّ العزّة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨].

وقال في مقام آخر: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

أجْمَعَ الأئمّةُ المُجْتَهِدُون على وُجُوبِ التّوبةِ، فَتَح اللّه سُبْحانه وتعالى بابَ التوبةِ حتى تَأْتيَ سَكْرَةُ الموتِ أو تَطْلعَ الشمسُ مِنْ مَغْرِبها.

قَالَ النبيُّ ﷺ: «إنَّ اللّه عزَّ وجلَّ يقبلُ التّوبةَ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ».

[الترمذي]

وقال عليْهِ الصّلاةُ والسّلامُ: «مَنْ تَابَ قَبْلَ أنْ تَطْلُعَ الشّمسُ مِنْ مَغْرِبها تَابَ اللّهُ عليهِ».

[رواه مسلم]

يَغْفِر اللّهُ سبحانه وتعالى للتائِبينَ مِنَ الذّنوبِ كأنّهم لم يُذْنِبوا قَطْ.

قال عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ: «التّائِبُ مِنَ الذّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ».

إذا أحَبّ اللّهُ تعالى عبداً فلا يَغْفِرُ ذُنُوبَه فَقَطْ، بل يبدّلُ سيئاتِهِ حَسَنَاتٍ. قالِ تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠].

رَوَى عِمْرانُ بنُ حُصينٍ رضي اللّه عنه، أنّ صحابيًا تَابَ تَوْبةً صَادِقةً حتى قال عليه الصّلاةُ والسّلامُ: «لَقَدْ تَابَ توبةً لو قُسِمَتْ بيْن سَبْعِينَ مِنْ أهلِ المدينةِ لَوَسِعَتْهُمْ».

عَنْ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ رضي اللّه عنه أنّه قَالَ: قَالَ رسُولُ اللّه ﷺ: «اللّهُ أفرحُ بتوبةِ عَبْده مِنْ أحَدِكُم سَقَطَ على بَعيرِهِ، وقد أَضَلّه في أرضٍ فلاةٍ».

[أخرجه البخاري ومسلم]

ولِمُسْلِم أيضاً قال: قَالَ رسولُ اللّه ﷺ: «للّهُ أشدُّ فَرَحاً بتوبةِ عَبْده حين يَتُوبُ إليه مِنْ أحَدِكُمْ كان على رَاحِلَتِهِ بأرضٍ فَلَاةٍ، فانْفَلَتَتْ مِنه وعَلَيْها طَعَامُه وشَرَابُه فأيسَ مِنها فأتى شَجَرةً فاضْطَجَعَ في ظِلّها، قد

أَيِسَ من رَاحِلَتِهِ، فبيْنَا هو كَذَلِكَ إذا هُو بهَا قَائِمةٌ عنده فأخذ بِخِطَامِها، ثم قالَ مِنْ شدّةِ الفَرَحِ: اللَّهُمّ أنْتَ عَبْدي وأنا رَبّكَ، أخْطأ مِنْ شِدّةِ الفَرَحِ».

[جامع الأصول ج ٢ ص ٥١٠]

قَالَتِ المَشَايخُ: لمَّا طُرِدَ الشَّيْطَانُ استُمْهِلَ وقال: ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الحجر: ٣٦]، قال اللّه تعالى: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ [الحجر: ٣٧، ٣٨]، فانْظُرْ لو أُمْهِلَ الشَّيْطَانُ اللعينُ فلمَ لَا يُمْهِلُ لمذنبِي الأمةِ المحمّديةِ؟

قالَ الحَافِظُ ابنُ كثيرٍ: وفي روايةٍ قالَ إبليسُ: وعزّتكَ وجَلَالكَ لا أَزَالُ أُغْوِيهِمْ ما دَامَتْ أرْواحُهُمْ في أجْسَادِهِمْ، فقال اللّه عزَّ وجلَّ: «وعزّتِي وجَلَالي لا أزَالُ أغْفِرُ لَهُمْ ما اسْتَغْفَرُونِي».

[تفسير ابن كثير ج ٤ ص ١٧٨]

كَانَ شيخٌ كبيرٌ يَمْشِي إذْ رأى شُبّاناً يَخْتَصِمُونَ، فلمّا مرَّ الشّيخُ بهِمْ قال شَابٌّ: يا سيّدي! أفتِنا في رَجُلَيْن: رَجُلٍ لَمْ يُذْنِبْ قَطْ، ورَجُلٍ أذْنَبَ ثم تابَ توبةً نَصُوحاً أيّهُما أفْضَلُ عِنْدَ اللّهِ تعالى؟ وعلَى قَلْبِ أيّهما نظرةٌ خاصّةٌ للّه تعالى؟ فقالَ الشيخُ: أنَا أَنْسُجُ النّسيجَ وله خُيوطٌ طويلةٌ لو انْحَلّ خَيْطٌ أعقِدُه ثم أُلَاحِظُه حتى لَا ينحلّ مرةً ثانيةً، فلعلّ المُذْنِبَ الذي رَبَطَ علَاقَته بربّه بعد أنِ انحلّت علاقته بربه بتوبةٍ نَصُوح، يكون للّه على قَلْبه نظرٌ خاصّ حتى لا يبعدَ ذلك العبد. سبحان اللّه.

قيلَ: يا عَبْدِي ذُنُوبُك قليلةٌ ورَحْمَتِي كثيرةٌ، وإن كانَتْ ذنوبُك بعدَدِ نُجُومِ السّماءِ، أو كَانَتْ بعدَدِ أوراقِ أشْجَارِ الدّنيا كلّها، أو كَانَتْ بعَدَدِ ذرّاتِ رمالِ جميع الدنيا، أو مِثْل زَبَدِ البحَارِ كلّها، فذنُوبُك قليلةٌ ورَحْمَتِي كثيرةٌ، فأتِ وتُبْ أقبلْ تَوبَتَكَ حتى قَالَ: يا عَبْدي إنْ أنْتَ تُبْتَ ثم نَقَضْتَ توبتَك، ثمّ تبتَ ثمّ نَقَضْتَ توبتَكَ، ثم تُبْتَ ثم نَقَضْتَ، إنْ

نَقَضْتَ مائةَ مرةٍ فانْتهِ وتُبْ يا عَبْدي، إنْ أنْتَ تُبْتَ مائةَ مرةٍ ونَقَضْتَ مائةَ مرةٍ فبابي الآن مَفْتُوحٌ فأتِ وتُبْ أقْبَلْ تَوْبَتَكَ، وقَدْ صَدَقَ مَنْ قَالَ: (أُمَّةٌ مُذْنِبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ).

٥ ـ تِلَاوةُ القُرآنِ الكَريم:

تِلَاوَةُ جزءٍ أو نِصْف جزْءٍ مِنَ القُرآنِ الكَريمِ كلّ يومٍ.

أدلّة مِنَ القُرآنِ الكَريم:

الدّليل الأول: قال تعالى: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ [المزمل: ٢٠].
أمر في هذه الآيةِ بتلاوةِ القُرآنِ الكَريمِ، ولهذا يأمُرُ المَشايخُ سَالِكي الطَّريقةِ بِتلَاوةِ القُرآنِ الكَريمِ.

الدّليل الثاني: قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: ١٢١].

أدلةٌ مِنَ الحَديثِ الشّريفِ:

الدّليلُ الأولُ: رَوَى الطَّبَرَانِيُّ، أنّ النَّبيَّ ﷺ قال لِرَجُلٍ وهو يُوصيهِ: «أوصِيكَ بِتَقْوَى اللَّه فإنَّه رَأسُ الأمْرِ كُلّه، وعليْكَ بتِلَاوةِ القُرآنِ وذِكْرِ اللَّه فإنَّه ذِكْرٌ لكَ في السَّماءِ ونُورٌ لَكَ في الأَرْضِ».

[المعجم الصغير للطبراني]

الدّليلُ الثاني: عَنْ أبي ذرٍّ رضي اللَّه عنه أنه قَالَ: قَالَ رسُولُ اللَّه ﷺ: «عليكَ بِتِلَاوَةِ القُرآنِ فإنَّه نُورٌ لك في الأرْضِ وذُخرٌ لكَ في السَّماءِ».

الدّليلُ الثالثُ: رَوَى الإمَامُ البيهقيُّ في شُعَب الإيمانِ، عنِ ابن عُمَرَ رضي اللَّه عنهما أنَّه قَالَ: قَالَ رسُولُ اللَّه ﷺ: «إنَّ هذه القُلُوبَ

تَصْدَأُ كما يَصْدأُ الحديدُ إذا أصَابَهُ المَاءُ». قيلَ: يا رسولَ اللّه! وما جَلَاؤُهَا؟ قال: «كثرةُ ذِكْرِ المَوْتِ وتِلَاوةُ القُرآنِ».

الدّليلُ الرابعُ: رَوَى الإمَامُ أبو دَاوُدَ، عَنْ عَبْدِ اللّه بن عَمْرِو بنِ العَاصِ أنه قَالَ: قالَ رسُولُ اللّهِ ﷺ: «مَنْ قَامَ بعَشْرِ آياتٍ لم يُكْتَبْ من الغَافِلِينَ، ومَنْ قَامَ بمائةِ آيةٍ كُتِبَ مِنَ القَانِتِينَ، ومَنْ قَامَ بألفِ آية كُتِبَ من المُقنْطَرِينَ».

[سنن أبي داود ج ١ ص ٢٠٥]

الدّليلُ الخامسُ: رَوَى الإمامُ البخاريُّ رَحِمَه اللّه وأبُو دَاوُدَ في روايةٍ طويلةٍ عنْ عَبْدِ اللّه بنِ عُمَرَ عَنِ النبيِّ ﷺ أنه قال: «اقْرأ القُرآنَ في كُلِّ شَهْرٍ».

[صحيح البخاري ج ١ ص ٧٥٥، وأبو داود ج ١ ص ٢٠٥]

٦ ـ رَابِطَةٌ بالشَّيخِ:

أصْلُ أصُولِ جميعِ الأعْمَالِ رَابطةُ الشَّيخِ، وهي اتّصَالٌ بالشَّيخِ وإشعاره بأوضَاعِه بالحُضُورِ عنده أو بالرّسَالةِ أو الهَاتفِ أو غيرها وقَضَاء الحَياة وفق تَوْجِيهه.

أدلّةٌ من القرآن المجيد: قال تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [لقمان: ١٥] فاتّباع الشّيخ اتّباعُ أمْرِ اللّه تعالى، لأنَّ الشيخَ مَلِيءٌ بالإنَابةِ إلى اللّهِ تَعَالى، ولا بدّ للاتّباع من الاطّلاعِ.

أدلةٌ مِنَ الأحاديثِ:

الدّليلُ الأولُ: عَنْ أبي هريرةَ رضي اللّه عنه، أنَّ النبيَّ ﷺ قَالَ: «الرَّجُلُ على دينِ خَلِيلِهِ فليَنْظُرْ أحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلْ».

[رواه أبو داود والترمذي]

وإذا كَانَ الإنْسَانُ على دِينِ خَلِيلِه، فَعَلَى السَّالكِ أنْ يَتَمَسَّكَ بمحبةِ

الشَّيخِ ويتَّخذه خَليلَهُ ومُرْشِدَه، حتى يَسْهُلَ له الاصْطِباغُ بصِبْغَةِ الدِّينِ. قال النبيُّ ﷺ: «لا تُصَاحِبْ إلَّا مُؤْمِناً».

[الترمذي]

وهذه هي صُحْبَةُ الشَّيخِ ورَابِطَته.

الدَّليلُ الثاني: قال النبيُّ ﷺ: «المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ».

[البخاري، ومسلم]

هذا الحديثُ كافٍ وافٍ وشَافٍ لِسَالِكِي الطَّريقةِ، فالسَّالكُ إذا جَعَلَ ارتباطَه بشيْخِهِ قويًا بَلْ أقْوَى يَجِدُ حبّه أشدّ وهذا آية سمَاعِ بُشْرى المَرْءِ مع مَنْ أحبّ يومَ القِيامةِ، عَنْ أنسٍ رضي اللَّه عنه قال: أنْتَ مَعَ مَنْ أحْبَبْتَ، فالرَّابطةُ بالشَّيخِ هي مُلَخَّصُ الأورادِ وعِطْرُها، وهو تَفْسِير ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.

الدَّليلُ الثالثُ: قال عليه الصَّلاة والسَّلام: «عَلَيْكُمْ بمجَالَسَةِ العُلَماءِ واسْتِمَاعِ كَلَامِ الحُكَماءِ، فإنَّ اللَّه تعالى يُحيي القَلْبَ المَيْتَ بنُورِ الحِكْمَةِ كما تَحْيَا الأرضُ الميتةُ بماءِ المَطَرِ».

[الترغيب والترهيب]

وقَضَاءُ الوقْتِ في صُحْبةِ الشَّيخِ عَمَلٌ بهذا الحديثِ النبويّ الشَّريفِ.

الدَّليلُ الرابعُ: رُوِي في روايةِ أبي سعيدٍ رضي اللَّه عنه قصَّةُ رَجُلٍ من بَني إسرائيلَ قَتَلَ مائةَ قتيلٍ ثم نَدِمَ فقيل له: انطلقْ إلى أرْضِ كذا وكذا فإنّ بها أُناساً يَعْبُدونَ اللَّه تعالى فاعْبُدِ اللَّهَ مَعَهُمْ.

[رياض الصالحين]

إذا حَضَر السَّالكُ إلى زَاوِيةِ شَيْخِهِ ويَجِدُ جَمْعاً مِنَ السَّالكينَ يَصْدُقُ عليهم أناساً يَعْبُدُونَ اللَّه تعالى، فينال سَعَادةَ العَمَل (فاعْبُدِ اللَّهَ مَعَهُمْ).

الدّليلُ العقليُ: يذهبُ المريضُ إلى الدّكتور فيفحصُه الطبيبُ ويكتبُ له وصفةً طبيّةً ويقولُ: ارجِعْ إلى البيْتِ وتَناولْ هذا الدّواءَ لأيامٍ كذا وكذا، ثم ائتِ إليَّ وأخبِرْني عَنْ أمْرِكَ. هكذا يُعْطي المُرْشِدُ مُريدَه وصْفَةَ الأورَادِ الروحَانيّةِ ويقولُ: التزمْ بهذه الأورَادِ وأخْبِرْ عن أوْضَاعِكَ حِيناً فحيناً. وهذه هي الرّابطَةُ بالشّيْخِ.

شواهد شعرية:

ذِكْرُ أبياتٍ مِن شُعَراءِ الأُمةِ في أهميّةِ رابطةِ الشّيخِ.

قال شَاعِرٌ ما معناه:

مَنْ كانَ يريدُ صُحْبةَ اللّه تعالى فلْيُجَالِسِ الأولياءَ.

وقال آخَرُ ما معناه:

صُحْبَةُ الصّالحينَ تَجْعَلُك صَالِحاً، وصُحْبَةُ الأشْقياءِ تُصَيّرك شقيًا.

وقالَ آخَرُ ما معناه:

إنْ كُنْتَ صلصالاً أو رُخَاماً فاذْهَبْ إلى صُحْبَةِ أهْلِ القَلْبِ تَكُنْ لؤلؤاً.

وقال آخَرُ ما معناه:

اتركِ القَالَ واتّخِذِ الحَالَ واقْتدِ رَجُلاً كاملاً تَكُنْ صَاحِبَ حَالٍ، وألقِ الكتابَ ومائةَ وَرَقَةٍ في النارِ واجْعَلِ القَلْبَ والنّفْسَ إلى صَاحِبِ حَالٍ.

وقَالَ آخَرُ ما مَعْنَاهُ:

وَجَدْتُ يوماً في الحَمّامِ تُراباً مطيّباً (خوشبو دار) مِنْ يَدِ الحَبيب، فقلتُ له: هلْ أنْتَ مِسْكٌ أو عَنْبَرٌ، فإني رَاغِبٌ في طِيبِكَ؟ فقالَ: إني كُنْتُ تُراباً حَقِيراً، ولَكِنْ صَحِبْتُ الوردَ مدةً فعمِلَ جَمَالُ صَاحِبي عليّ وإلّا فأنَا ذلك الترابُ الحقيرُ الذي كُنته.

وقال آخَرُ ما معناه:

يحرقُ الشَّمْعُ القَدِيم مَوْجَ نَفْسِهم ما إذا استتر في صُدور أهْلِ القَلْبِ. يا ربّ! لا تسألْ إن أحْبَبْتَ هؤلاء اللَّابسينَ الخرقة يَجْلِسُون واليَدُ البيضاء في جُيُوبهم، إن تَبْغِ حَمَاسَ القَلْبِ فاخْدُمِ الفُقَراء، فإن هذا الجَوْهر لا يوجد في كنوزِ المُلوكِ.